تجارة الكتب والترغيب فى القراءة

يؤخذ من إحصاء نشرته مجلة سيلس الأمريكية أن عدد المجلدات التى أخرجتها مطابع الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٣٩ بلغ ١٨٠,١٤٢,٤٩٢ مجلدا منها كتب المدارس التى بلغت ٦٣,٢٧٤,٧٥٨ مجلدا .

أما عدد المجلدات من حيث المادة التى تعالجها هذه الكتب فكما يلى :

الزراعة وما يتصل بها	١,٠١٨,٨٠٩	مجلد
التراجم	٢,٣٨٤,٦٤٧	»
الفنون الجميلة	٥٩٠,٨٨٥	»
التاريخ	٢,٣٠٦,٨٢٩	»
القانون	٢,٣٥٦,٣٩٥	»
الطب	١,٨٦٨,٨٠٢	»
الموسيقا	٥,٦٨٢,٠٤٢	»
المسرحيات والشعر	١,٤٩٩,٤٧٧	»
الديانة والفلسفة	٦,٤١٣,٦٠٦	»
الاجتماع والاقتصاد	٨٨٦,٧٥١	»
السياحة والجغرافيا	١,٤٨٢,١٣٨	»
المراجع (معاجم الخ)	٦,٧١٦,٤٠٣	»
مواد مختلفة	١٦,١٩٦,٤٢٢	»

والامريكيون يشاع عنهم أنهم ماديون يعتقدون أن النجاح لا يعنى أكثر من جمع الدولار . ولكن هذا الإحصاء ينقض هذا الزعم ، لأنه يثبت أولا أن المحصول الذهنى أو إنتاج القرائح لا يقل من الناحية التجارية عن عشرين مليونا من الجنيهات ؛ وليس هذا بالمبلغ الصغير حتى فى أمة يبلغ عددها ١٣٠ مليونا ، ويثبت ثانيا أن هذا المحصول ليس تافها من الناحية الذهنية — نعنى بذلك أن القصص لا تستغرقه ، فإن الزراعة وحدها قد استوعبت أكثر من مليون مجلد — وليست الزراعة من العلوم أو الفنون التى تقرأ للذة أو الترويح وقد استغرقت

الديانة والفلسفة أكثر من ستة ملايين مجلد . ويجب أن نلتفت هنا لما أسميناه " المراجع " التي أوشكت أن تبلغ سبعة ملايين مجلد ، فإن هذه المراجع تعنى المعاجم اللغوية ومعاجم التراجم والتقاويم والأطالس الجغرافية والكتب الاستشارية ، وجميع هذه الكتب تدل على نظام في الدراسة وعلى حب للثقافة ، لأنها تحتاج إلى مكتبة في المنزل وإلى الرجوع من وقت لآخر إلى هذه المراجع للاستشارة والتوسع ، فهي برهان على عادة الدرس .

وأعظم مايجعل تجارة الكتب رائجة في الولايات المتحدة بعد إقبال الأفراد على القراءة واقتناء الكتاب أن هناك مئات بل آلافا من المكتبات العامة التي أنشأتها الحكومة أو الأثرياء وهذه المكتبات تشترى الكتب الجدية التي ربما لايقبل عليها الجمهور إقبالا يكفي لأن يجعلها من الصفقات الرابحة للناشرين . فهناك كتب إخصائية نوعد الذين يقتنونها من الأفراد لم يزدوا على مئتين من علماء الجامعات ، ولكن المكتبات العامة تشترى هذه الكتب فيرتفع العدد من ٢٠٠ إلى ٢٠٠٠ وبذلك يتجرأ الناشر على النشر ويقبل على عمله متفائلا بالربح . وكثيرون من العلماء والأدباء والأثرياء يتركون مكتباتهم عقب وفاتهم هدية لإحدى المؤسسات ، وبذلك تصان هذه الكتب بتعيين القيمين عليها وينتفع بها الجمهور كذلك . وقل أن يخلو شارع في مدينة كبيرة ، كما لاتخلو قرية ، من مكتبة ما . وأحيانا تعمد المكتبات العامة إلى إرسال الكتب إلى العزب النائية والمساكن المنعزلة في الريف فتعير مجلداتها للمزارعين وتعود بعد شهر أو نصف شهر تستبدل بها مجلدات أخرى . وقد أنفق أندرو كارنجي الثري الأمريكي المشهور ملايين الجنيهات على تأسيس المكتبات لافي الولايات المتحدة وحدها بل في اسكوتلاندة وطنه الأول قبل أن يهاجر إلى أمريكا .

والذين زاروا أوربا يعرفون أن "المكتبة العامة" أنواع مختلفة . فهي قد تحوى مليونا أو أكثر من المجلدات ، وهذه لا ترى إلا في العواصم الكبرى ، وبعض هذه المجلدات يضن بها على جمهور القراء ولا يجوز إخراجها إلا بعد الاستيثاق التام من شخصية القارئ أو المستعير . ولكنا نخطئ الخطأ الفادح اذا كنا نظن أن جميع المكتبات يجب أن تكون بهذه الضخامة أو أنه يجب أن يكون بها عشرات من الموظفين ، لأن الواقع أن معظم المكتبات في أوربا وأمريكا بل ٩٩ في المئة منها هي مجموعات صغيرة شعبية من الكتب والمجلات والجرائد . وقد لا يزيد إيجار المسكن الذي تشغله على ثلاثة أو أربعة جنيهات في الشهر وهي توجد في الشارع الكبير والزقاق الصغير ، وليس في المكتبة سوى الأمين الذي لا يتجاوز مرتبه الشهري بضعة جنيهات ، وهذه المكتبات التي تعد بالألوف هي الأصل في رواج الكتب والتشجيع على القراءة والدراسة لأنها تشترى الكتب الشعبية التي يمكن القارئ العادي أن يقرأها .

ولهذا السبب يمكن الذين لم يحصلوا على تعليم جامعى أن ينالوا قسطا كبيرا من الثقافة العالية بالالتجاء إلى هذه المكتبات واستعارة الكتب منها . وقد قلنا إن هذه المكتبات تعنى باقتناء الكتب الشعبية ، ولكنا لا نعنى أنها تغرى الجمهور بقراءة المؤلفات السخيفة ، بل نستطيع أن نقول إن أمهات الكتب التى رسخت شهرتها على مدى الأجيال منذ أيام الإغريق الى الآن تجد العناية العظيمة والمقام السامى عند جميع هذه المكتبات فمهما صغرت المكتبة فانك لا بد واجد فيها مؤلفات من ارسطوطاليس وهيرودوتس وبيكون وأوريليوس . وهذا الى المؤلفات العصرية التى تؤثر فى الاتجاه الثقافى العصرى

وجميع هذه المكتبات تقتنى الجرائد والمجلات ، ولكنها تمحو مافيها من أخبار المقامرات أو الجرائم أو تقصها حتى لا يستضر الجمهور بقراءتها .

ويمكننا نحن فى مصر أن نتعظ بما يجرى فى أمريكا ، وذلك بأن ندرك أن المكتبات العامة ليست ضرورية لتنوير الجمهور وتثقيفه فقط ، بل هى ضرورية لزيادة الإنتاج الذهنى وتشجيع حركة التأليف ، كما يجب أن نكف عن الأبهة الشرقية وأن نتواضع فى تفكيرنا ، فان المكتبة لا يشترط لها المبنى الفخم وعشرات الموظفين ، بل يكفى أن تبدأ صغيرة بنحو ألف مجلد أو ألفين مع قليل من الجرائد والمجلات فى مسكن لا يزيد إيجاره على ثلاثة جنيهات وأمين لا يزيد مرتبه على أربعة جنيهات . واذا نحن تواضعنا فى التأسيس ، فإنه يمكننا ألا نترك شارعا كبيرا أو حيا صغيرا فى القاهرة أو غيرها من مدننا بدون مكتبة . والمكتبة الجديدة هى جزء من مجموعة يراد منها رياضة العقل ورياضة الجسم ، فإنها تبنى فى حديقة يتنزه فيها الجمهور ويجد فيها أدوات الرياضة البدنية . وقد يكون بها حمام للسباحة وأحيانا تكون المكتبة جزءا من ناد للشبان أو للفتيات يجد فيها هؤلاء الطعام والشراب كما يجد فيها سائر الجمهور الكتب التى تستعار والجرائد والمجلات التى تقرأ داخل المكتبة .